ترجمة جاك بيرك للقرآن: من القراءة إلى التفسير

مصطفى عبد الغني

تمهيد:

تركز الورقة البحثية هنا على فرضية أساسية حول سؤال حيوي هو: كيف نعيد النَّظر في نظرة الغرب إلى الشرق؟ هذا هو السؤال الأول الذي لا تكتمل الإجابة عنه دون رصد تداعيات أُخرى يرتبط بها. ورغم أنَّ هناك تساؤلات علمية أُخرى تكمِّل البناء الشَّكلي للتعامل مع إطار الاستشراق، فإن السؤال الأول يظل أهمَّ ما يطرح هذه القضية.

والسؤال الأول يقربنا من سؤال مباشر آخر: كيف حاول (جاك بيرك) ترجمة معاني القرآن الكريم؟* خاصة أنَّ هذه المحاولة شهدت ردود أفعال كثيرة حول ترجمته، ورد فعله نفسه بإعادة طرح قراءته للقرآن الكريم عبر تصريحات وندواتٍ كثيرة، خاصة أنَّ نقاد الاستشراق كانوا كثيرين، بحيث نال

---

* نشرت ترجمة معاني القرآن الكريم لجاك بيرك عام 1990 تحت عنوان:

Le Coran (Essai de traduction de l'arabe, annoté et suivi etude exegetique). Sindbad. Paris.

ووضع جاك بيرك في نهايتها تذييلاً تحت عنوان (En relisant le Coran) بين ص 709 ـ 793 فضلاً عن بعض الفهارس أو الكشافات في نهاية الترجمة للشخصيات والآيات.. وما إلى ذلك، ولم يلبث بعد الضجة والهجومين العنيفين اللذين وجها إليه خاصة في مصر في بداية التسعينات أن راح يعيد طبع الترجمة في طبعة ثانية عام 1992 وراح يصوب فيها بعض الألفاظ ـ وإن تكن قليلة ـ ويترك فيها ألفاظاً أخرى كما هي اقتناعاً منه بصواب اجتهاده.

هجوماً حاداً من وجهة نظر مُغايرة وشرسة (على الأقل في مصر أكثر من الجزائر).

إنَّ رصد موقف جاك بيرك على هذا المستوى سوف يتمهل بنا عند التفسير الأيديولوجي، وهو نابع ـ كما أشرنا ـ من علاقة العالم الغربي بالعالم الشرقي، ومن ثم، موقف الغرب من الشرق.

ودون أن نستبق النتائج، فإنَّ الملاحظة العامة هنا تُشير إلى أنَّ المستشرق الغربي لا يستطيع الوصول إلى ملامح أو صورة صادقة للعالم المغاير له/الشرق، إذ إن أيَّ تصوير لموقفه، كما يردد (إدوارد سعيد) في كتاباته عن «الاستشراق»، يخضع للغة القائم بها وثقافته ومؤسساته وعالمه السياسي، ويتم في عالم يتحكم فيه تراث وتاريخ ومناخ عقلي لا يستطيع الباحث المنفرد أن يستقل عنه، وإنْ كان يسهم بالجديد فيه.

بيد أنَّ القضية تتخذ أبعاداً أكثر من هذا في قضية الاستشراق، فلا يمكن أن نفهم موقف (جاك بيرك) هنا دون أن نتمهل عند ملاحظتين وعدة مستويات. أما الملاحظتان فهما:

ـ الشَّرق في نظر الغرب

ـ الغرب في نظر الشرق

فكما أنَّ الغرب يحاول أن يمنح تفسيرات لقراءاته المتباينة، كذلك فإنَّ اهتمامنا ـ نحن ـ بهذه القراءات التي تكتب عنا والتفاعل معها بالسلب أو بالإيجاب، يحدِّد لنا أكثر (وجهة نظر) الآخر، فَمِن المعروف أنَّ الآخر يظل جزءًا من تكوين وعي الذَّات واكتمال أدواته وتحديد دوافعه.

أما فهم موقف جاك بيرك (ألمع المستشرقين الكبار وآخرهم) فيمر عبر ثلاثة مستويات على النحو التالي:

ـ سوء الفهم الملتبس بحسن النية

ـ أو سوء الفهم الملتبس بالميثولوجيا

ـ أو دراسة مقارنة بين الأنا والآخر

ولأن المستوى الأول هو ما يهمنا هنا ـ فسوف نرجئ المستويين

الآخرين لما بعد، ونتوقف عند المستوى الأول؛ وهو ما يتوقف بنا عند عناصر المنهج الذي قام به جاك بيرك لترجمة معاني القرآن عبر المساحة التي عمل خلالها وسوف يكون ذلك بالتمهل ـ قبل كل شيء ـ من نماذج ترجمة معاني (القرآن الكريم) لديه خاصة تلك التي يصوب لها سهام النقد من الطرف الآخر على أنها (أخطاء) وقع فيها (المستشرق). فجاك بيرك لا يرى من خلال هؤلاء غير أنه (مستشرق)* ومن ثم تنسحب حوله تهاويم المستشرقين وتجنيهم في النقد الديني. فالهجوم على الاستشراق من الجانب الإسلامي يتلمس في الإطار الديني الطرح المضاد (بعد أن طرح طويلاً النقد السياسي).

على أن ما يجب أن نشدد عليه هنا أنه وإن كان الطرح الديني هنا هو ما يظهر في المحاور العامة، فإن الخلفية الحقيقية تجاوز العقيدة إلى أنحاء القضايا المختلفة خاصةً أن جاك بيرك من مواليد الجزائر وعمل طويلاً في فترة الإمبريالية الفرنسية وتحت إمرتها قبل أن تستقل الجزائر. كما أنه زار أكثر من قطر عربي، وأجاد العربية، وعمل في مناصب كثيرة في المنطقة العربية، كما أن كتاباته تتسع في الدائرة الواسعة من الإناسة إلى علم الاجتماع والتاريخ الاجتماعي والتاريخ المعاصر واللغات والأدب والفكر السياسي والعلوم الإسلامية. وقبل أن يرحل كان إنجازه الكبير يتحدد في ترجمة معاني القرآن الكريم. ومن هنا، فإن اهتمامات جاك بيرك تجاوز ترجمته للكتاب الديني العربيّ إلى مجالات أُخرى في منطقة المتوسط. ولذلك، فسوف نتعامل مع

* يرفض المستشرقون المعاصرون لنا مصطلح مستشرق، ويستبدلون به مصطلحاً آخر فيردد جاك بيرك (أنا باحث)، وقد لمست بنفسي هذا الحرص على رفض المصطلح الشائع، فبمجرد أن كنت أتحدث مع أحد هؤلاء، وأبدأ بمصطلح المستشرق حتى كان محدثي يرفض تماماً هذه الصفة، وفي حين رفض جاك توبي مصطلح مستشرق منتفضاً (لا، أنا مؤرخ) أيضاً رفض المستشرق الإسباني بدرو مارتينيث معي هذا المصطلح بما يقرب الغضب. وهو ما فعلته أيضاً المستشرقة المعروفة من آخر هذه الأجيال الأستاذة كارمن أن تكون (مستشرقة) ومنذ اللحظة الأولى ظلت تردد لمرات أنها باحثة وأستاذة جامعية متخصصة في الآداب العربية. وأعتقد أن هذا يعود إلى السمعة السيئة لمصطلح (المستشرق: الشخصيات التاريخية والأدوار..).

جاك بيرك من ضمن هذه الدائرة الواسعة وإن كان مركز الدائرة هنا ترجمته تلك لمعاني القرآن الكريم. فلنتمهل عند بعض التعريفات لمفهومي القراءة والتفسير قبل أن نصل إلى (الترجمة)؛ ترجمة المعاني ودلالاتها هنا.

تعريفات أولية

سوف نرى أن القراءة والتفسير يرتبطان ارتباطاً وثيقاً ولا يمكن الفصل بينهما. فللقراءة Reading معانٍ كثيرة تتشعبُ في الدراسات اللغوية والمقارنة الألسنية والبنيوية.. وما إلى ذلك من المناهج المعاصرة حتى أصبحت عملية تفاعل بين أنظمة لاواعية أهم شروطها ـ هنا ـ أن نحاول فهم الكلمات في إطار عالمية الإسلام. ولأن القراءة تظل مرحلة متقدمة على التأويل، فإن الارتباط بينهما يظل ارتباطاً تراتبياً.

ومما يلفت النظر في تراثنا أن الترجمة تشير إلى أن من يترجم الكلام يعني أنه ينقله من لغة إلى أُخرى «والشخص يسمى الترجمان، وهو الذي ينسق الكلام»، فإذا أشرنا إلى ترجمة معاني القرآن هنا فإننا نتجاوز مفهوم القراءة إلى مفهوم التفسير Interpretation وهنا تلتقي القراءة بالتفسير في وقت واحد.

ثم إذا حاولنا إعادة قراءة هذه المفاهيم عبر ـ محاولة (جاك بيرك) ـ نلاحظ أن ترجمته للقرآن تعني (إعادة قراءته)[1] بتعبيره في محاولة تفسير وإعادة تفسير لما تقوم عليه طبيعته أو تكوينه المغاير لموضوعه، وأنه حاول ـ فيما نرى ـ أن يصور نفسه باعتباره يبذل جهداً كبيراً لترجمة نص شرقي في موضوعية تامة، أو أنه يفسر ترجمةً شرقيةً في حيدةٍ شديدةٍ. إنَّ الترجمة

(1) لا يمكن التعرف على محاولة جاك بيرك في ترجمة معاني القرآن دون القراءة والتعرف على كل إنتاجه الفكري ـ خاصة ـ عقب نشر طبعتيه من الترجمة، وخاصة، هذه المحاضرات التي ألقاها بعد نشر الترجمة تحت عنوان: إعادة قراءة القرآن Relire le Coran وهناك عدة ترجمات ركيكة أو غامضة لهذه المحاضرات التي جمعت في كتاب فيما بعد.

تحمل نوعاً من أنواع التأويل، والترجمة نفسها تعني ـ مع التأني في فهم تفسيرها، فلا فارق بين الترجمة والتفسير، و(جاك بيرك) يعترف بنفسه: (ـ . . لا ننسى أنَّ الترجمة هي نفسها نوع من التفسير)[1].

والواقع أن الترجمة التفسيرية المقصود بها «شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى، والمفسر في هذه الحالة يتكلم بلهجة المبين لمعنى الكلام على حسن فهمه، وكأنه يقول للناس: هذا ما أفهم به الآية، وبعبارةٍ أخرى، الترجمة التفسيرية هي ترجمة لفهم ـ شخصي ـ، ولا تتضمن وجوه التأويل المحتملة لمعاني القرآن، وإنما تتضمن ما أدركه المفسر منها، ولذلك فهي ترجمة للعقيدة الإسلامية ومبادئ الشريعة كما تفهم من القرآن»[2].

نخرج من هذا كله أن محاولة (جاك بيرك) كما يعترف هو «ليست غير محاولة لتفسير معاني القرآن الكريم، لأن الترجمة الحقيقية للنص القرآني مستحيلة، فألفاظ وعبارات القرآن الكريم، لها مدلولات ومؤشرات عميقة، لا تستطيع اللغة (القابلة) أن تنقلها بكل ما تحتويه من معانٍ ظاهرة وخافية»[3].

ومع ما يحتوي ذلك من دلالة صعوبة التفسير، تبرز أمامنا حقيقة أُخرى، هي أنَّه ما دامت قضية الترجمة أو التفسير قضية غير سهلة، وتتداخل في مناطق أُخرى، فإن الأقرب إلى فهم النص هنا هو أنَّ صاحبه لا يستطيع ـ ولو أراد ـ أن يكون أميناً، ومن ثم، فإنه يكون أقرب إلى ذاته في تفسير النص من أي مؤثر آخر. وهنا نلتقي في التفسير أمام رأيين: أحدهما يرى أن (جاك بيرك) عمد إلى الترجمة بشكل يسوده سوء النية، هذا هو الرأي الأول ويعني الاتهام بسوء النية. أمَّا الرأي الآخر، فهو أنَّ (جاك بيرك) سعى أثناء الترجمة ليكون محايداً وبدقة أكثر بشكل يسوده حسن النية.

ومع ميلنا إلى الرأي الأخير، فإن ذلك لا يمنع من الإقرار بأنَّ ما حاوله

---

(1) أحمد الشيخ، حوار الاستشراق، المركز العربي للدراسات الغربية، ط 1/ 1999، ص 27.
(2) أنظر مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص 317 نقلاً عن مخطوطة من تأليف سعيد اللاوندي بعنوان: محاكمة جاك بيرك «إشكالية ترجمة معاني القرآن الكريم».
(3) سعيد اللاوندي، المصدر السابق، ص 101.

في ترجمة معاني القرآن ـ أصاب أم أخطأ؟! أساء أم أحسن ـ. فإن ذلك لم يزد على أن يكون جزءًا من (السيرورة التفسيرية) التي تنطوي على تكوين ذات غربية (الآخر) إلى درجة التورط في بعض الأفكار ضد النص القرآني الكريم.

ولهذا، فإنَّ سوء الفهم ـ كما نشير ـ ينطوي هنا على حسن النية. وسوء الفهم الملتبس بحسن النية يمكن أن يترجم إلى لونٍ من الاجتهاد سعى إليه (جاك بيرك). ويكتمل هذا الرأي أكثر عبر عدة مشاهد من الترجمة قبل أن ننتقل إلى دلالة التفسير: القرآن في نظر الغرب ثم الغرب في نظر الشرق.

أولاً: مشاهد من الترجمة

شهد النصف الأول من التسعينات صدور ترجمتين للقرآن الكريم قام بهما (جاك بيرك) ونال المترجم على أثر صدور الطبعة الأولى هجوماً عنيفاً واتهامات نالت (نيته) وسوء (الطَّوية) ـ كما ردد كثيراً دون مناقشة هادئة أو إعطاء فرصة للمترجم ليناقش منهجه في الترجمة، خاصة وأنَّ (جاك بيرك) ظلَّ وللفترة الأخيرة قبل رحيله يُبدي احتراماً شديداً للجهات الدينية في مصر ويطلب لقاءً علمياً للمناقشة والإفادة.

والملاحظ أن هذا الهجوم العنيف تبنته عدة مجلات لا يعنيها الأمر كثيراً، كما أنَّ محرريها ليس لديهم القدر الكافي من الوعي الدِّيني (مثل مجلة: الإذاعة..)، وهو ما رددته بعض الصحف أو المجلات السيارة التي لم تقترب من علم (جاك بيرك)، كما لم تكتسب فقهاً دينياً أو درساً دينياً عميقاً بأصول الكلام وعلم البيان.. وما إلى ذلك من الشروط التي يجب أن تتوفر في المفسِّر. ولأن المؤسسة الدينية في مصر هي أعلى الجهات في التعبير عن الجانب الديني، فإن الكثير ممن اتهموا (جاك بيرك) توجهوا إليها إما باستعداء هذه المؤسسة أو بالاشتراك في لجان عبر هذه المؤسسة أو بالحديث باسمها في الصحف والمجلات، وفي جميع الحالات، فإن أياً من المثقفين لم يعل صوته في الدفاع عن ترجمة (جاك بيرك).

والواقع أنه ـ مع بعد التماثل ـ فإنَّ ما كان يواجهه باحث غربي أراد الاجتهاد في تفسير القرآن الذي أُنزل على الرسول ﷺ لإبلاغ (العالمين)، إنما

كان يعكس جزءًا من المناخ العام من التضييق والتشدد. . حيث كانت البلاد العربية تعاني في الحقبة الأخيرة من هذه الحالة، فقد زادت الحِدة في التعامل مع القضايا اليومية التي ترتبط من بعيد أو من قريب بالكتاب ـ القرآن ـ وأصبح الهجوم على الاجتهاد وصاحبه جزءًا من هذا المناخ الذي عم المنطقة كلها فيما يشبه حالة من (الاستنفار) عبرت عنها أمثلة كثيرة أقبلت بوجهها الثائر في نهاية التسعينات بوجه خاص.

وقد مثل المؤسسة الدينية في مصر في ذلك الوقت مجمع البحوث الإسلامية ـ التابع للأزهر ـ وقد تم تشكيل لجنة ممن تعاملوا مع النص المترجم تعاملاً عدائياً ـ أو على الأقلِ غير محايد ـ وأكثرهم كانوا يمارسون مثل هذا العمل خارج الأزهر، فلما شكِّلت اللجنة انضووا تحت لوائها، وبعد فترة خرج علينا تقرير؛ كان أصحابه، قسَّموا العمل فيما بينهم لتخرج ـ كما جاء في التقرير بتسجيل (انطباعاتها عن كثير من القضايا والمواقف التي تحتاج إلى رد وتصويب أو تعقيب، بهدف أن تكون هذه الانطباعات ماثلةً أمام من سوف يُكلَّفُ بالرد. .)[1]. وفي الواقع فإنَّ أخطاء الترجمة التي عرض لها الأزهر في تقريره أو بعض الأساتذة في الصُّحف لا تجزم بأنَّ صاحبها عمد إلى ذلك، وإن كنا ـ كما أسلفنا ـ لا نقلل من اجتهاده الذي لم يكن وراءه سوء نية، وسوف نضرب عدة أمثلة مما ورد حينئذٍ:

(1) جاء في ديباجة التقرير (تنفيذاً للقرار رقم 204 لسنة 1995 الذي تفضل بإصداره الإمام الأكبر، قامت اللجنة بعقد سبعة عشر اجتماعاً في الفترة ما بين 5 يوليو 1995، يناير 1996. .).

وقد اختير في اللجنة عدد من أساتذة الجامعة وسفير وأمين سر من المجمع، وقد كان أنشط هؤلاء في الهجوم على الترجمة في الصحف والمجلات خارج المجلس د. زينب عبد العزيز (نشرت ما كتبته مجموعاً عام 1994)، وقد انتهت اللجنة إلى تحديد بعض الأخطاء التي رأت أنها لا تتمشى مع لغة القرآن الكريم ومعانيه خاصة هذه الدراسة التي ذيل بها جاك بيرك ترجمته فضلاً عن ملاحظات زاخرة بالاتهامات للمترجم، كما تمت ترجمة هذا التذييل، ولم يحدث شيءٌ بعد ذلك (بل صدرت دراسة لمحمد رجب البيومي عام 1999 عنوانها: إعادة قراءة القرآن، دار الهلال) المحرر.

سورة التوبة، الآية 95: ﴿إذا انقلبتم إليهم لتُعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس﴾.

Vers de votre retour auprès dieux, pour que vous ignoriez leurs fautes. C'est cela: ignorez, les eux mêmes! ils se sont salis.

ومعناها أثناء عودتكم إلى جوارهم، لأنكم تجهلون أو تتجاهلون أخطاءهم. ذلك هو فتجاهلوهم لقد اتسخوا. (وعبارة «ذلك هو» غير واردة في النص) ثم وضع حاشيةً يبرر فيها اختياره لكلمة تجاهل ترجمة لأعرض لأنه لم يجد أفضل منها للتعبير عن المفرد الوارد في الآية إلخ.. والاتساخ غير الرجس حيث إن الرجس يعني impurite. وفي الواقع فإن دلالة مصطلح مثل **Salis** يمكن أن تحمل معنى آخر غير المعنى الذي اعترض عليه أعضاء اللجنة، ففي حين أن الرجس يحمل معنى «الاتساخ» في ترجمة (جاك بيرك)، فإنَّ هذا المعنى نجده في المعجم الفرنسي وفي المعاجم العربية معاً يحملُ نفس الدلالة.

إن معجم الوسيط يشير إلى أنَّ الرجس هو الفعل القبيح والحرام واللعنة والكفر و ـ العذاب وفي التنزيل (ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون). ورجس الشيطان وسوسته.. إلخ[1] والمعجم الفرنسي يرى أنَّ فعل Salir يعني قذر ووسخ لكنه أيضاً يعني دنس وتدنس Se salir ليحمل دلالة وظيفية[2].

الأكثر من هذا أن استبدال المفرد الأول اتساخ بآخر هو الدنس على أنها تحمل اختلافاً شاسعاً يظل من قبيل الدلالة غير قطعية الثبوت في ألفاظ الشريعة، حيث إن كلمة Impurite التي ترى اللجنة أنها أفضل من كلمة اتساخ تُعطى نفس المعنى في المعاجم الفرنسية. فالصفة Impur دنَّس تُعطى كذلك معنى نجَّس لتصبح اللفظة حاملةً معنين اثنين في وقت واحد (اتساخ/ رجس)[3].

(1) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، أشرف عليه عبد السلام هارون، ج 1، القاهرة 1960، ص 330.

(2) المنهل، دار العلم للملايين، دار الآداب، ط 6، مايو 1980.

(3) المصدر السابق، ص 540.

إن ألفاظ الشريعة هنا تحيلنا إلى قاعدة هامة هي أن كل نصوص القرآن قطعية الثبوت لأنها وصلت بطريق التواتر، غير أن دلالة النصوص تارة تكون قطعية وأخرى تكون وظيفية، فإذا كان اللفظ الوارد في النص لا يحتمل إلا مدلولاً واحداً كانت دلالته في هذه الحالة قطعية كبعض آيات الميراث، أما إذا كان اللفظ القرآني ـ وهو ما يهمنا هنا ـ عاماً أو مطلقاً أو مشتركاً كانت دلالته لفظية، إذ إنَّ اللفظ هنا يحتمل أكثر من معنى يسوغ معه الاجتهاد لترجيح أحد المعاني. وما نجده هنا نجده في أمثلة أخرى كثيرة عبر اللجنة وخارجها:

سورة التوبة، الآية 110: ﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾ ترجم تقطّع بكلمة éclate وتعني تنفجر.

إنَّ هذه اللفظة ـ حتى مع وضع حاشية لها ـ في الترجمة لا توصف بالخطأ الذي يصوره أعضاء اللجنة ـ فإن لفظة تقطع تأتي في هذا السياق:

(1)A moins que leur coeurs N'en eclate

وفي القرآن الكريم: ﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطَّع قلوبهم..﴾.

وهي تترجم في تقرير اللجنة على أنها ينفجر في حين أنَّ اللفظة في القرآن هي تقطَّع.

وهذه اللفظة بالفرنسية ربما كانت أصوب من سابقتها التي اقترحها المجلس فضلاً عن أن Eclat بالفرنسية تعني أيضاً شظية أي تتحول إلى شظية، ويمكن أن تتحول إلى كتلة زجاج في المعنى المفرد للكلمة ذات المعنى الاشتقاقي مما يرجح المعنى. وهو ما نجده في اللغات الأُخرى.

إنَّ العود إلى الفرنسية يدل على أنَّ هذا المعنى يمكن أن تُضاف إليه اشتقاقات أُخرى كثيرة لا تخل بالمعنى. كما يلاحظ أنَّ العضو الذي راح يُصوِّب اللفظة بأُخرى لم يأت بمثيلتها الفرنسية التي ربما كانت ـ كما يسعى ـ أقرب إلى المصطلح الأجنبي. وهو ما يلاحظ أنه يتكرر كثيراً في هذا

---

(1) Le Coran, p. 213.

الصدد. ويصل بنا ذلك إلى الآية التالية:

سورة التوبة، الآية 117: ﴿لقد تاب الله على النبي﴾ ترجمها كالمعتاد Dieu s'est repenti envers l'Envoyé. إنَّ الله قد قبل توبة أو ندم الرسول.

وترجم «رؤوف رحيم» بكلمة Tendre وتعني حنون (وهناك في اللغة عبارة مقابلة هي clément).

ومع أنَّ الكلمة Repenti تعني معنى التوبة في الفرنسية، فإنَّها ـ كذلك ـ تعني في اللفظ الاشتقاقي المرادف معنى الندم في آنٍ واحدٍ فضلاً عن معان اشتقاقية أُخرى للصفة أو الفعل مثل توبة أو ندم بشكل واضح جداً غير أنَّ تركيب الجملة كان يعوزه توفيق أكثر من (جاك بيرك) الذي لم يسع ـ من الرؤية العامة ـ إلى التشكيك في المفاهيم أو محاولة تغيير المعاني كشأنه.

وما يقال عن كلمة (تاب) يقال على صفات (رؤوف رحيم) فإنه فضلاً عن المعاني الاشتقاقية في اللغة، فإنَّ الاختلاف على دلالة بعينها لا يصمُ صاحب المعنى بسوء النية، وإنما هو حسن النية ـ كما نقول ـ الملتبس بالاجتهاد أو بعدم التوفيق في اختيار مفردٍ ما.

لكنّ الهجوم ضد (جاك بيرك) يمتد من داخل اللجنة إلى خارجها.

سورة البقرة (الآية 214): ﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾ كلمة (النَّصر)، وكان هذا في مقام النقد، ذهبت زينب عبد العزيز إلى لوم جاك بيرك على عدم استخدامها في الترجمة ومعناها بالفرنسية Victoire. وكلمة النَّصر التي ترد في القرآن إحدى عشرة مرة، وتصل تصريفاتها اللغوية إلى قرابة المائة مرة، لم يترجمها بيرك مرة واحدة بمعناها الحقيقي، ففي سورة البقرة مثلاً (حتى يقول الرسول والذَّين آمنوا معه متى نصر الله) ترجمها قائلاً:

- L'Envoyé et ses compagnons dans fois s'ecrierent: «A quand **le secours** de Dieu».

ومعنى الترجمة ـ كما تشيرُ المُترجمة: ـ رسولُ الله ورفاقه في الإيمان صاحوا: متى نجدةُ الله!

وفـــي نـــفـــس الآيـــة نـــرى: - Ou le secours de Dieu est toujours proche..[1]. ومعناها أنَّ غوثَ الله دائماً قريب.

وتوجه اللوم إلى جاك بيرك «وكأنه يأبى كتابة النصر للإسلام أو أنَّ الإسلام قد انتصر»[2]. ومع ما في هذا من لوم يمكن أن يوجه إلى (جاك بيرك) ـ ونحن نوافق عليه ـ فإنَّ كلمة النَّجدة تبتعد كثيراً في دلالتها الاشتقاقية عن كلمة النصر، فإنَّ الاختلاف في المعنى، وتطور معاني المشتقات الفكرية وغير الفكرية في المرجعيات ربما تكون دالة على هذا الاختلاف، ونحن لا نبرر للمترجم ذلك، وإنَّما نلاحظ فروق المعاني أو (معنى الكلمة) في الذِّهن الذي يتغير كثيراً في مرجعياته. وهو لبسٌ لا نذافع فيه عن (جاك بيرك) وإنما نُقاربُ به فهم ترجمته، خاصةً، وأنه سئل في هذا فقال على الفور: ـ قلتُ النَّجدة التي تؤدي إلى النَّصر[3].

ويمكن أن نوافق (جاك بيرك) على هذا التفسير، خاصة، أنَّ الآيات التالية في سورة البقرة تشير إلى التشوف إلى هذا النصر خلال العودة إلى الاتفاق على القتال والحث على القتال الذي كُتِبَ على المؤمنين ثم القتال في الشهر الحرام.. إلخ مما قد يبدو معه أنَّ النجدة بمشتقاتها الفعلية كانت هي المقدمة إلى النصر كما يقول.

وعلى الرغم من أنّ بين أيدينا عشرات من مشاهد الترجمة التي تثير الرغبة في البحث عند البعض أو الشك عند آخرين، فإننا سنحاول العودَ إلى السؤال الذي سبق أن طرحناه آنفاً، ونحاول الإجابة عنه:

ـ كيف حاول (جاك بيرك) ترجمة معاني القرآن الكريم؟

وهو ما يعبر بنا من تخوم الترجمة إلى آفاق القراءة ـ التفسير.

(1) المصدر السابق، ص 55.

(2) زينب عبد العزيز، المصدر السابق، ص 22.

(3) أحمد الشيخ، حوار الاستشراق، المصدر السابق، ص 29.

ثانياً: القراءة ـ التَّفسير

لا نحتاج إلى جهدٍ كبيرٍ لنكرِّرَ هنا أنَّ (جاك بيرك) يختلف ـ كمستشرق أو باحث في الاستشراق ـ عن جيل آخر سابق له يربط بين الاستشراق والإمبريالية أو الاستشراق التقليدي والاستشراق الجديد.

إنَّ الاستشراق الذي خصص له إدوارد سعيد كتابه (الاستشراق) يغاير هذه الكتابات التي وإن اختلفت مع ما سبقها من سمات تتسم بدافع القوة والتسلط والاستعلاء، فإنها تتمثل عند (جاك بيرك) في جيل جديد استطاع أن يفلت من الاستشراق القديم، وإن لم يستطع أن يفلت من هذه «النسبية» التي تُعفي الباحث الغربي من أية مسؤولية عن التشويه المتعمد لصورة الشرق، لأنه بذلك يستجيب لصفة تنتمي إلى طبيعة العقل نفسه، وهي أنَّه يحيل كل شيء يكوِّن لنفسه تصوراً عنه، إلى شيء ملائم له[1]. إنَّه التصور المغاير بحكم (القطيعة) الفكرية بين الثقافتين.

نحن أمام حاضر آخر للعلاقة مع الشَّرق تغاير هذه العلاقة بين العالمين الشرقي والغربي منذ العصور الوسطى[2]. نحن أمام وعي الباحث الغربي (أو المستشرق) الذي يملك حساسة مغايرة، وإن لم يستطع أن يتخلص من تباين الإدراك أو سوء الفهم بين الثقافات التي تتم بدافع الاختلاف العميق بين العقليتين أو العالمين الشرقي والغربي إن لم يكن بين الشمال والجنوب الآن.

إنَّ التطورات التاريخية للارتقاء بين الثقافات تتسم بالتعدد والتعقيد، كما أنها تفرض بالضرورة حدوداً لا تستطيع أية ثقافة أن تتعداها في محاولتها فهم الثقافة الأخرى، ومن هنا، نستطيع أن نتفهم سوء الفهم الذي بدا كمسحة عامة في العديد من قراءات (جاك بيرك).

---

(1) صادق جلال العظم، الاستشراق والاستشراق معكوساً، مجلة الحياة الجديدة، ع 3/ 1981، ص 14 و15.

(2) أنظر التفصيل هنا في كتاب تراث الإسلام ق 1، تصنيف شاخت وبوزورث، ترجمة د. محمد زهير السمهوري، سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1978.

ومهما يكن من إدراك (جاك بيرك) لدوافع حركة الاستشراق التقليدية، فإنه كان لا بد أن يسقط فيها عبر الترجمة الكاملة للقرآن الكريم.

ومن هنا، فنحن أمام ترجمة (جاك بيرك) لمعاني القرآن لا نستطيع أن نغفل عدة عناصر أو سمات تُسهم ـ وإن يكن بشكل غير مباشر ـ في توجيه القراءة، وتفسير النَّص؛ وهذه العناصر يمكن الإشارة إليها في عديد من هذه العناصر من غياب الوعي وتغاير المرجعيات وسوء الاستخدام المعجمي وتباين القناعات وتغاير المواقف وهو ما يتحول معه جاك بيرك ـ عبر محاولته ـ من حسن النية إلى حالة يلتبس معها حسن النية وسوء النية معاً. وإذا كان حسن النية واقعاً عيانياً، فإن سوء النية يصبح رمزاً استعارياً صريحاً، وهو ما نتمهل عنده أكثر.

1 ـ تغاير المرجعية

إنَّ جاك بيرك أمام (نص) القرآن، وأمام تفسيرات تراثية عديدة، وأمام (قداسة) القرآن وشروط تفسيره حاول أن يكون موضوعياً، بيد أنَّه، في الوقت نفسه، لم يستطع أن ينفي مشاعره أو يلغي (مرجعيته) التي تكونت منها ذاته المفكرة.

وهذا يعني أنّ (القراءة) هنا لم تكن بريئة تماماً، وإن أكد صاحبها أنَّها كذلك، وإنما هي ـ بالرغم منه ـ تتجه إلى آفاق بعيدة تلقى فيها تفسيرات متباينة. ولأن القراءة تقترن ـ دائماً ـ بهذه المرجعية الذاتية، فإنَّها تتجه ـ وإن ادّعت الحيدة أو الإفادة من الغير ـ تتجه إلى (التفسير) الذي ينتمي إلى (القراءة) وليس خارجاً عنها بأية حال.

وقد كان يمكن لجاك بيرك هنا ـ كغيره ـ من المترجمين، أن يكتفي بمحاولة التعرف على المعاني وينقلها دون ادعاءٍ كبير، بالتعرف على اللغة لحقبة بعيدة أو دراسة النحو والبيان أكثر من غيره، دون أن يحول هذا إلى تعبير يطل برأسه من آن لآخر في المتن أو في الهامش ليضفي تفسيرات كثيرة لا ترتبط كثيراً بالنص، بل ربما تتجاوزه إلى تفسيرات خاصة.

وجاك بيرك نفسه لا ينفي صعوبة فهم النص، ويعي صعوبة التواؤم مع مرجعيته، كما أنه يبدي تواضعاً شديداً في بعض الأحيان لفهم بعض الأخطاء التي وقع فيها، بل إنه لم يتردد أكثر من مرة في القول إنه يأخذ بالتفسير الديني Exegese وكثيراً ما يصرح بأنه (كاثوليكي)، بما يشير إلى أنَّ المرجعية الخاصة للمترجم هنا إنما ترتبط ـ إلى حد كبير ـ بالمرجعية المهيمنة على وعيه. وجاك بيرك نفسه لم يتجاهل تغاير هذه المرجعية التي يعمل من خلالها عن مرجعية النص الذي يعمل عليه. فقد اعترفَ بصعوبة دراسة تطور الفكر الإلهي من خلال الوحي الذي هبط على النبي مضيفاً بأنه «من الناحية العلمية يصعب دراسة تطور الأفكار الفلسفية والقرآن الكريم بعد أربعة عشر قرناً من الزمان، وفي هذا الصدد أذكّركُم بأننا اليوم نجهل الترتيب الحقيقي لأفكار باسكال ـ Les Pensees مع العلم أنّ تاريخ كتابتها ليس ببعيد ـ ثلاثة قرون»[1].

ويزيد من فارق المرجعية أو ينتج عنه صعوبة الاقتراب من النص وكما لاحظ البعض، فإنه «إذا كان صعباً على أي إنسان أن يفهم كتاباً في غير لغته، التي لا يعرف عنها شيئاً سوى مراجعة الألفاظ والمعاني، فالأمر مع القرآن الكريم يكون قُصاراه تدبر القرآن بعقل المترجم وتفهمه بفهمه وتفكيره في كلِّ شيء يتعلقُ به»[2]، وهو ما أدركه جاك بيرك بالفعل وحاول تلافيه إمّا بالاستماع إلى الأخطاء التي نجمت عنه أو بالأخذ ببعض الاقتراحات.

وقد حاول البعض الدفاع عن جاك بيرك في هذا الوقت فذهب إلى أنَّ أخطاءه أو جهله لبعض المعاني إنما يحسبُ للإسلام لأنَّه يصلح لكل زمانٍ ومكانٍ وأنّ الفهم والتفسير وإن يكن خطأً فهو لا يتعارض مع الرسالة؛ غير أنَّ هذا لا يصبح صحيحاً عند جهله لعديد من المعاني التي تتصل باختلاف

(1) مجلة القاهرة: أغسطس 1993، ع 129 من حوار مع جاك بيرك.

(2) محمود العزب، وقد كان أول من لجأ إليه جاك بيرك بعد الطبعة الأولى، وأشار عليه بكثير من الأخطاء. (أنظر كتاب محاكمة جاك بيرك، المصدر السابق، ص 145)، وهو ما حمل جاك بيرك على تصويب حوالى المائتي موضع ولم يشر إلى الكثير مما أشار به المترجم المصري في ذلك الوقت.

المرجعية في المقام الأول، أو سعياً محموداً للاجتهاد بأية حال[1].

الأكثر من هذا أنَّ جاك بيرك ـ لغياب المرجعية ـ جاوز أحياناً حُسْنَ القصد إلى سوء القصد في محاولاته (لتغريب) العديد من ألفاظ القرآن الكريم، وهو ما يمكن أن نوافق عليه البعض من نُقاده، بل إن محاضراته التي أسرع إليها بعد أن واجه هجوماً عنيفاً تزخر بعديدٍ من هذه الأخطاء التي نراها ضعفاً في المرجعية ويراها غيرنا من سوء القصد[2]. ومع هذا، فإنَّ تغاير المرجعية وحدها كان كافياً ليقع في عديد من الأخطاء الظاهرة.

2 ـ جنايةُ المناهج

إنَّ مراجعة ترجمة جاك بيرك هنا تشير إلى أنَّه ـ مثل عدد من المستشرقين ـ رغم استخدامه لعدد من المناهج الغربية الجديدة على النَّص، فإنَّه ما زال يحملُ رواسبَ تاريخية واجتماعية خاصة في التفسير أكثر من محاولة صارمة في المنهج..

لقد ردد كثيراً خاصة عقب صدور الطبعة الأولى من القرآن الكريم أنَّه يعتمد على البحوث اللغوية الجديدة التي يطلق عليها (البلاغة الجديدة) والسيميوتيك والسيمانتيك.. ويُردِّد في مرات كثيرة أُخرى أنه حاول أن يتلمس علم المنطق والرموز والعلامات والصوتيات ثم إنه استعان ـ كما يردد بنتائج البحوث اللغوية الجديدة.. إلخ إلى غير ذلك، غير أنَّ التمهل أكثر عند هذه المناهج وغيرها ترينا أنَّه لم يستطع أن يبرأ من خطأ التفسير.

نحن على سبيل المثال أمام خطأ في رؤية المفرد، فالمنهج

---

(1) Le Monde Diplomatique, Fevrier 1991, p. 32.

(2) Jaques Berque, Relire le Coran.

(وعلى سبيل المثال في محاضرة: المعيار في القرآن سواء في المقارنة بين القرآن وبقية الكتب المقدسة، أو حين توقف عند مصطلح مثل Acculturation في نفس الموضع)، وهي أخطاء لا نعدمها في ترجمة بعض المعاني أيضاً، وإن كان لا بد أن نذكر دائماً هنا أن حسن القصد كان ديدنه وليس سوء الطوية.

الفيلولوجي ـ على سبيل المثال ـ معناه أنَّه يجب أن ندرس كلَّ كلمةٍ تأتي في الوثيقة (= القرآن)، أي البحث عن الألفاظ في معناها الجاري في زمانها، أي ـ بمعنى آخر ـ العودة لفهم ألفاظ القرآن الكريم ومعانيها في زمن نزول القرآن وأسباب التنزيل وما إلى ذلك.. ومع هذا، فإننا لا نعدم لديه الخروج على هذا في بعض الأحيان.

إن بيرك لا يربط في كثير من الأحيان بين معنى اللفظة في سياقها الزمني ومعناها بَعْدَ أكثر من 1400 عام على نزولها، وهو وإن حاول ذلك باجتهاد يخلو من سوء النية، فإنَّه لا يخلو من غفلة لا يُحسَدُ عليها. وكما يلاحظ، فإن استخدام الألفاظ هنا لا يُراعي دلالة الزمن الذي أُنزلت فيه. وهذا لا نجده في قضية درس أو تحليل نقديٍّ، وإنما ينحسب على قضية دينية مقدسة لا وقت فيها للتأمل. ولا يمكن أن نشير إلى هذا فنصفه بالاجتهاد، وإن حثنا القرآن على الاجتهاد أو التفسير، إذ إنَّ الاجتهاد والتفسير هنا له شروطه؛ وهي شروط ليست قائمة هنا في النصِّ المترجم.

إنّ هذا لا يعني عدم وعيه بمناهج العلوم الاجتماعية المعاصرة التي يوليها اهتماماً كبيراً، وإنما كثيراً ما يعود إلى هذا وغيره بشكلٍ لا يصلح بالقطع لنص مقدّس مثل القرآن الكريم ومجتمعه في ذاك الزمن البعيد. والأكثر من هذا أننا نستطيع أن نقول إنّ بعض هذه المناهج التي تستخدم هنا يمكن أن تضع بين أيدينا بعض التفسيرات، لكنَّها ـ بالقطع ـ لا تعطينا التفسيرات (النموذجية) لنصٍّ مقدس[1]. إنّ القراءة المقبولة بالشكل المنهجيّ هنا لا بد أن يكون لها عدةُ شروطٍ محددةٍ. والغريب أنّه حين يذكر في كتاباته النظرية في تنزيل القرآن الكريم أو محاضراته أنَّه يستخدم العديد من المناهج أو الطبقات من المعاني؛ لا يلبث أن يعود ليعترف في أكثر من موضع بأمرين اثنين:

- إنَّ هذه الطبقات من المعاني تمثل صعوبة عند نقل النّص القرآني إلى اللغة الفرنسية، ناهيك عن أن اللغة الفرنسية ليست غنيةً بالمفردات مثل اللغة

(1) المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية، عبد الله العروي وآخرون، دار طوبقال للنشر، المغرب 1996، ص 12، 13.

العربية، وإن كانت غنيةً بالتراكيب الأسلوبية.

- لقد عاب عليه الكثيرون أنه استخدم هذه المناهج لتأكيد الرسالة المحمدية لا لدحضها في الوقت نفسه وهو ما يتعارض مع ما حدث بالفعل.
- وقد يكون من المهم أن نذكر هنا ما يذهب إليه محمد أركون مما يسوقه من دلالةٍ على صعوبة ترجمة القرآن اليوم، لأنّ المترجم المعاصر مقيدٌ بقواعد علم الفيولوجيا، لكنَّه يختلفُ في ذلك عن المفسر القديم الذي يعتمدُ على ما يمكن أن نسميه (منطق الإيمان) ويقصد به التوفيق والتعديل مفترضاً تكريسَ الإيمان في قلوب الناس ولإبراز إعجاز القرآن. لكنّه لا يعتني بتاريخ المعجم العربيّ للبحثِ عن السياق الاجتماعيّ والثقافيّ والاجتماعيّ الذي يعتمدُ عليه الخطاب القرآنيُّ.
- ونحن نوافق أركون فلا بدَّ للمؤرخ من العودة إلى هذا السياق حتى يهتدي إلى المعاني الأصيلة لجميع ألفاظ القرآن[1].

وهو ما ينتقل بنا ـ مؤقتاً ـ إلى غياب المعجم العربي، أو غياب المعجم التاريخي.

3 ـ غياب المعجم التاريخيّ

رغم أننا أشرنا فيما سبق إلى أهمية المعجم التاريخي، فإننا نضيف هنا،

(1) محاكمة جاك بيرك، المصدر السابق، ص 135 ـ 136.
(ويرى محمد أركون أن الفرق بين المفسر القديم والمؤرخ الفيلولوجي المعاصر هو أن الأول يحرص على توضيح المعاني حسب نظرية خاصة في العلاقات بين اللغة والفكر، تلك النظرية التي تقول إن ألفاظ اللغة لها مدلول خاص، ومعروف ومتداول لدى الناطقين بهذه اللغة ويدركه كل من يستعمل هذه اللغة، إدراكاً عفوياً، بينما النظرية الحديثة للعلاقات بين اللغة والفكر تقول بأن اللغة منظومة من العلامات الصوتية وكل علامة تشير إلى صورة ذهنية قبل أن تشير إلى الشيء.. فكل علاقة إذن لها مستويان من الدلالة: المستوى الأول يشير إلى الصورة الذهنية، والمستوى الثاني يشير إلى «الشيء» أو «الواقع» على ما هو عليه). للمزيد أنظر: Mohammed Arkoun. Lectures du Coran, Paris 1982.

أنَّ كثيراً من المترجمين لمعاني القرآن لم يحترموا هذا المعجم الخاص بالخطاب القرآني والمعنى المعجميّ في زمن الوحي. نقصد أن يراعوا شروط العودة للقاموس والملابسات التي تحيطُ بتطورِ اللفظةِ وسياقها.

وهذا المعنى المعجميُّ هو الذي يتردد في كتب البيان العربيّ على أنه معنى الكلمة المفردة ذات الأصل الاشتقاقيّ والصيغة[1]. وهو معنى يمكن تفصيله أكثر الآن ـ مع ترجمة جاك بيرك ـ، إنَّ الخطاب القرآني مقيدٌ بقواعد معينة، قواعد المعجم العربيِّ في القرنين السادس والسابع؛ فإذا وضعنا في الاعتبار أنَّ القرآن الكريم ينتمي إلى مرحلة من المراحل التاريخية التي مرت عليها اللغة العربية، فليس بوسعنا ـ حتى لو كنا نحسن اللغة العربية اليوم ـ أن نهتديَ إلى المعاني الأصلية للقرآن، إلاَّ إذا أحطنا إحاطة دقيقة وشاملةً بالمعجم التاريخي في زمن التنزيل.

والملاحظ أنَّ جاك بيرك كان يعود من آن لآخر للبحث عن معنى إحدى ألفاظ القرآن الكريم إلى مثل هذه القواميس أو المعاجم فينقلُ عنها دون التنبه إلى تغير السياق الزَّمني و ـ وبالتبعية ـ التغاير في الفهم، فضلاً عن أنَّ القاموس لا يُعطي المعاني النصية، بل مجرد دلالة ألفاظٍ، كما أنه كان يعتمد على فهمه لمفردات المعجم اللغوي العربي دون درايةٍ كافيةٍ.

الأكثر من هذا أن ترجمته كانت تشير من آن لآخر ـ خاصةً في الهوامش ـ أن هذه الكلمة أو تلك لها معنى كذا لدى المعجميين العرب. بل إنّ هذا ردَّدَه بكثرةٍ في محاضراته التالية في دفاعه عن نفسه (إعادة قراءة القرآن)، إذ يلاحظ أنه في المحاضرة الثانية عن الزمن في القرآن لا يكتفي

---

(1) «والمعنى المعجمي: هو المعنى المفرد الذي للكلمة خارج السياق في حالة إفرادها، وهو يعد ثمرة لتضافر اشتقاقها وصيغتها الصرفية. وإذا كانت الصيغة الصرفية إحدى ركيزتي المعنى المعجمي، كان المعنى الوظيفي المنسوب إلى الصيغي عنصراً من عناصر المعنى المفرد للكلم».
(أنظر المزيد في كتاب: البيان في روائع القرآن، تمام حسان، جزءان، عالم الكتب، القاهرة ط 2/ 2000)، ص 9 ـ 289؛ وأيضاً: اجتهادات محمد أركون في كتاب (محاكمة جاك بيرك، المصدر السابق)، ص 133.

بالعودة إلى مقولته أن أصل هذه الكلمة الفقهي كذا (بحسب المعجميين) وإنما جاوز هذا إلى العودة إلى عديد من المصطلحات الغربية نفسها كان يستدلُ بعبارةٍ أو لفظةٍ من هيجل ـ في نفس المحاضرة ـ فيخلط بين المعنى الزمني والمعنى الغربيّ، جامعاً بين تباين المرجعيات والألفاظ في آن واحد.

وكثيراً ما كان يخلطُ هذه الأزمان بأزمان أُخرى، وهو ما كنا نجده حين يستشهد بقرائن توراتية وإنجيلية بل ويونانية قديمة فضلاً ـ كما أشرنا ـ عند ترديد إشارات ومجتزءاتٍ من التاريخ الغربيّ المعاصِر لنا.

إنّ غياب المعجم التاريخي واختلاط الزمن العربي بالغربي في التفسير حال بين جاك بيرك وبين التصويب الذي كان يدعو إليه دائماً.

ويشير عبد الله العروي إلى هذا حين يسميه (غياب إرادة استكشاف المفهوم القاموسي)[1]، فمع أنّ بيرك كان يعود لمثل هذه القواميس، متسلحاً بالمنهج الفيلولوجي وإن يكن السياق الفيلولوجيُّ ينتمي إلى الزمان الذي يعيش فيه، فإنَّ مرور آلاف السنين على وضع الألفاظ في مظانها أو دلالاتها يحول دون الوصول إلى المعنى المراد.

إننا أمام هوة زمنية بعيدة تحول دون الوصول إلى تفسير صائبٍ عبر القراءة، خاصةً إذا كان المترجم لا يتنبه بالقدر الكافي ـ ربما لتغاير المرجعية اللفظية ـ إلى اختلاف دلالة الألفاظ، فالمعروف أنَّ المعاني تتولد عن تناسق الألفاظ فيما بينها.

ولنضرب مثالاً جاء في كتابات أكثر منتقدي جاك بيرك، ونقصد به استخدامه للفظة فرنسية معاصرة للتعبير عن لفظة قرآنية لها دلالاتٌ مغايرة. يقول تقرير اللجنة الأزهرية ما يلي: في آية 25 نقرأ:

.. استخدم كلمة «ثقب» للتعبير عن تمزق قميص يوسف الذي: قُدَّ مِنْ قُبُل.

وما لبث أن استخدم في آية تالية في نفس المعنى معنى آخر لكلمة

(1) المنهجية والعلوم الإنسانية، المصدر السابق.

دُبُر: في آية 28 نقرأ:

.. استخدم كلمة «ممزقاً» لنفس المعنى: قُدَّ مِنْ دُبُر.

ترجمة الآية 25 تقول:

- elle lui dechira la chemise par-derriere

وترجمة الآية 28 تقول:

[1]- Quand eut vu que la chemise etait trouee par-derriere,......

والحريُّ بالمتخصص هنا أن يعجب من عدم دقة بيرك إلى درجة الريبة، حتى أنّ د. زينب عبد العزيز تقول: (ـ لماذا التغيير والنص واحد؟ تُرى هل جاك بيرك الضليع في اللغة العربية ـ على حدِّ قوله ـ لا يعرف أنَّ: قَدَّ الثوب يعني شَقَّهُ طولاً وأنّ كلمة trouee التي استخدمها معناها: يثقب أو يخرق؟! وأنَّ الفرق شديد الوضوح والاختلافِ بين شقِّ الثوب طولاً وبين خرقه؟!)[2]

وحين يواجه جاك بيرك بهذه الترجمة المريبة، نجده يقول مستسلماً فيما يبدو:

(ـ أنا أقبل المناقشة وأنّ هناك أشياء أستفيد منها. لستُ معصوماً.. خصوصاً في عمل ضخم يمكن أن أُخطئ في ترجمات آيات عِدّة وأسعى إلى تصحيحها بالطبع و..)[3].

وهو ما يشير في التحليل الأخير إلى أنّ غيابَ المعجم التاريخي يمكن أن يضاف إلى غياب المعجم اللغوي في آن واحد فتنجم الأخطاء التي هي ـ بالضرورة ـ نتاج حسن قصد، وليس نتيجة سوء نيةٍ مبيَّت. إنّ القراءة الغامضة هنا مسؤولة عن تفسير غير واضح.

غير أنَّ فهم الغرب لنا لا يجب أن يُنسينا أن فهم الشرق لنفسه يسهم

(1) Ibid., p. 247.

(2) أنظر إلى تقرير اللجنة الدينية، ص 3؛ أيضاً أنظر: زينب عبد العزيز، ترجمات القرآن إلى أين؟ وجهان لجاك بيرك، دار الهداية، ط 2، ص 24.

(3) حوار الاستشراق، المصدر السابق.

أيضاً في هذا التفسير. فإذا كان الغرب يرانا (من وجهة نظره) بهذا التفسير الذي يشوبه ـ أحياناً الخطأ ـ فمن المؤكد أنّ مَنْ يثبت هذا الخطأ في مرآة التفسير عندنا هو مسؤوليتنا نحن في فهم الآخر. وهو ما يصل بنا إلى فهم جديد لهذه الترجمة.

4 ـ كيف نرى الآخر؟

وكما أن (وجهة) نظرنا في الغرب تظل جزءًا من تفسيره وتحديد موقفه منّا، فإنّ الموقف الذي نتخذه من ترجمة جاك بيرك ـ بالتبعية ـ يسهم في تأكيد هذا التفسير.

وبدون استطرادٍ طويل، فإنَّ ترجمة القرآن ظلت قضية هامة في عصر النهضة العربي منذ قرن ونيف حين فرضت علينا القضية فرضاً أثناء البحث عن الهوية، دون أن نتخذ مواقف ثابتة فيها، ومن ثم، ظلت القضية معلقة، ونستطيع أن نعود إلى صحفنا القديمة لنرى ـ على سبيل التمثل ـ انقساماتٍ عديدة حول الترجمة أو نقل المعاني كما قرأنا للشيخ مصطفى المراغي ومحمد فريد وجدي وغيرهما على صفحات الأهرام والمقطم حيث بدت القضية تفرض نفسها دون أن نجد لها إجابات حاسمة.

وإذا كنا ندين ترجمة جاك بيرك ونتهمها بتشويه النص الآن، فإن هذا الاستنكار يمثل موقفاً ذاتياً كما أسلفنا لعدم وجود الأدوات المناسبة المعترف بها. وفي حين نهاجم هذا المستشرق أو ذاك لا نفعل بأنفسنا ما يُسهم في اكتشاف الذات وتعميقها، وإذا بنا نسعى دائماً إلى تأييد نظرية (المؤامرة) في حين يسعى غيرنا في تحويلها إلى واقع نلوم الآخر عليه من وجهة نظر الذات ولا نلوم الذات من وجهة نظر الذات.

وهو ما يصل بنا إلى هذه الحقيقة التي نعيش فيها، أننا لم نقم بإلقاء الضوء على هذه الترجمة أو تلك بعيداً عن الاتهام وتجسيد مطامع الآخر، لم نفعل شيئاً لتأكيد ذاتنا للدخول إلى المحاورة أو المكاشفة مع الآخر.

إنّ من عاش في النصف الأول من التسعينات يلاحظ أن الضجة الكبرى

كانت تقوم وهي تتهم جاك بيرك بأنه عدو للإسلام.

إننا لا نلغي (وجهة نظر) الغرب بالنسبة إلينا بشكله التقليدي الذي تعرفنا عليه في كتاب (الاستشراق) لإدوارد سعيد، لكن لا بد أن نتنبه إلى أنّ هناك استشراقاً جديداً، والأدق أن نقول عدد كبير من الباحثين المعاصرين بعضهم يرتبط بهذه الفئة المعروفة، لكن منهم من يحاول الكتابة عن الشرق والتعرف عليه بدون سوء النية، أو موقف مسبق. وقد عرفت عدداً من الباحثين (الذين يرفضون كلمة الاستشراق خاصة في فرنسا وإسبانيا) ممن يحاولون فهم الواقع العربي لا الارتباط بأغراض دينية صليبية أو الانتماء لمراكز مخابراتية.

فلا بد أن نعترف أنَّ المعيار الرئيسي، والأوحد في غالب الأحيان الذي تُقاس به قيمة المستشرق عند العديد من مثقفينا خاصة في المجال الديني هو «مدى اقتراب المستشرق أو ابتعاده عن تعاليم الإسلام، ومدى تمجيده للعرب أو تنديده بهم. وفي معظم الحالات تنسى القيمة الذاتية، والعلمية، لأبحاث المستشرق إذا كان ما يكتب يبتعد كثيراً عن أصول العقيدة. ويتم الحكم عليه من المنظور الديني وحده»[1].

وبالتالي، فإننا لا نجد في أيّ باحثٍ أو مترجم غربيّ إلا انعكاساً لنزعة العدوانية الغربية منا، ومن ثمَّ، لا نسعى إلى فهم ما يكتب عنا، وأظهر مثالٍ على هذا الآن هو هذه الترجمة لجاك بيرك، التي أسهمنا فيها أكثر من صاحبها، فغدا المترجم عدواً للإسلام دون أن نتنبه لما في الغرب من نظام معرفي يجب أن نتجه إليه قبل أن نرفض ما يأتي في تفسيرات الآخر عنا، أو صبغها بصبغة مبالغة.

وعلى هذا النحو، يكون علينا أن نشهد في فترة نشر الترجمة كتاباتٍ كثيرة، وصرخات مستمرة، دون أن نفهم شيئاً مما يحدث، فقد جند عدد من الصحف، وراح عدد كبير عندنا ممن يحسبون على المثقفين يزيدون من الضجة أو اتهام جاك بيرك الذي كان يسمع هذا كله وهو يسأل من يهمهم الأمر في مصر ألم يروا ترجمات مُريبة لإسرائيليين ومعادين للإسلام ليست

(1) فؤاد زكريا، مجلة فكر، 10/ 1986؛ أنظر دراسة (نقد الاستشراق)، ص 33.

نزيهة على الإطلاق: ماذا فعلتم حينما قرأتم هؤلاء؟

ولم يلبث أن أجاب: (ـ لن أنتظر الإجابة عن سؤالي، لأنني أعلم يقيناً أنكم لن تردوا بشيء، فأغلب الظن أنكم لا تقرأون. .)[1].

ورحل جاك بيرك دون أن يناقشه أحد. .

(1) محاكمة جاك بيرك، المصدر السابق، ص 103. أنظر مقالة الأهرام لجاك بيرك في هذه الفترة. فقد جاء في حوار نشر معه بالأهرام: (. . وفي العصر الحديث، ظهرت ترجمات عديدة، لعل آخرها ترجمة الإسرائيلي أندريه شوراكي، والفرنسي من أصل لبناني رينيه خوام، وما يدهشني حقاً أن هاتين الترجمتين ـ على وجه الخصوص ـ ليستا دقيقتين، كما أن ترجمة شوراكي ليست نزيهة على الإطلاق، ورغم ذلك لم يهتم أحد في العالم الإسلامي، وكنت أنتظر ممن هاجموني في مصر، أن ينتبهوا إلى هاتين الترجمتين، خصوصاً أن بمقدور الناقد المدقق أن يقول فيهما الكثير. ويطيب لي أن أطرح سؤالاً ـ في هذا الخصوص ـ على من اتهموني بالعداء للإسلام تلك التهمة التي يقشعر منها بدني ـ وأقول: ـ ماذا فعلتم عندما قرأتم ما كتبه كلود كبليو تحت مادة «قرآن» في الموسوعة العالمية، وما كتبه الآخرون في الموسوعة البريطانية وما تمتلئ به مجلات الاستشراق من هجوم على الإسلام ونبيه الكريم؟) ولم يتلق جاك بيرك إجابة حتى اليوم.